هذه هي الساعة ...!

للأستاذ محمود محمد شاكر

قامت الدنيا وأخذت تعد زينتها لأمر غير ما مضى من دهرها . إنها لا بد أن تتبرج لعيون عشاقها ، ممن كتب لهم أن يشهدوا مشهداً آخر من فصول الرواية الإنسانية التي تمثل في ساحاتها . نعم ، فإن الحرب المهلكة التي لا تزال تقعقع من شواهقها حين تنقض ، أو تزحر وتئن تحت أثقال الوقائع — لا تلفت الحياة الدنيا عن عملها في تليس العيش بالفتنة لمن يعيشون ، ولا عن تقديم اللذة لمن يشتهون . وكأن هذه الحرب إن هي إلا تضخيم عظيم لعمل العامل في إزالة التطرية (التواليت) عن وجه الغانية ، ونسف التطريف (المانوكير) عن بنانها ، وما سوى ذلك من إعداد الغانية الحسناء لتبدو مرة أخرى في حلى وبهاء وزينة

لا أتشاءم ولا أتفاءل ، فالقدر قد قضى على الدنيا قضاءه ؛ وما ندري ما يراد بنا منذ اليوم ! فرب شر نتوهمه كذلك قد احتقب الخير ، ليرمي في أرجاء الدنيا غرساً جديداً في أرض جدد تراها ما أصابها من تدمير وهدم . إن بعض القسوة في الحياة يكون كتشذيب الشجر في إبانه ، يقطع منه ليزداد قوة على إثبات وجوده وتقرير حقه في البقاء ناميا فينان يسمو وينتشر ويخضر ويثمر . وقانون الفطرة الذي تجري أحكامه على الطبيعة لتتجدد ، لا يخطئ ابن الطبيعة يعمل فيه ، ليصنع له حياة جديدة تثبت أن وجوده على الأرض حقيقة نامية أبداً ، إن يكن الماضي قد باد في التاريخ ، فإن الحاضر يثبت إثباتاً عملياً أنه مستمر في الحاضر ، ويكون استمراره في الحاضر دليلاً على امتداده إلى المستقبل . ويكون من جميع ذلك أن الحياة الدنيا مهما أصابها من شيء باقية ، لا يمحوها إلا القانون الآخر الذي يجعل لكل أول نهاية ينتهي إليها . فإذا جاء أوان هذا القانون فقد بطلت حيلة المحتال

إن الزمن الذي يمشي في الأرض تتخضرُ منها مواطئ أقدامه ، هو نفسه الزمن الذي يدب عليها فيُسمع لدبيبه دمدمة مما يتقصف تحته من عمارة الدنيا وبنيان الحضارة ، وعلى مواطئ الزمن تنزل الحضارات كلها أو تنهدم . ومن يوم أن تنهدت الأرض بالحياة يبيدُ شيء ويقومُ شيء ، وما يزول منها ما يزول إلا ليحل عليها ما يحل ، لأن الحركة دليل الحياة ، فلا يثبت معنى الحياة إلا بها ، وما يتحرك من متحرك إلا لتكون لانتقاله نهاية إليها يتوجه ، وعندها يقف . فإذا وقف فهذا آخر أنفاسه ، ثم يسكن سكون الموت

فما بنا على ذلك أن نتشاءم أو نتفاءل ، وما التشاؤم والتفاؤل إلا حركة النفس الفارغة التي لا تجد عملها ، فهي تعمل في إرهاق نفسها بما لا ينفعها ولا يعنيها ؛ وليس من عمل الإنسان ما هو أضر عليه من إجهاد نفسه في باطل ، والجهاد بها في غير طائل . فإذا أردنا اليوم أن ننظر فما ننظر إلا لنعرف الطريق التي يجب أن نقرر لجهودنا أن تعهدها لنا ولمن يأتي بعدنا على تدبير وسياسة

والقدرُ اليومَ قد قضى بين الناس ، ووضع القضية لمن يختار ، فمن شاء أن يدخل في عقد هذا وعهده دخل فيه ، ومن شاء أن يتخلف فقد رضي لنفسه على عَيْزة وبصيرة ، وما ينقض القدر قضاءه الذي أبرم ، فيأتي من يأتي ينوحُ بما ظُلم ، ويتوجّع بما غُبنَ ! !

ونحن قد لقينا من أحداث الدهر ما ردّنا بعد عزّ إلى قرار هوان . وقد آنَ لنا أن نرفع أنفسنا من وهدة واطئة قد ربضت بنا فيها سلاسل من حديد الذل ، وقد حضرت ساعة ينبغي أن نفصل فيها بين عهد مضى وزمن يستقبل ، فإذا قعدت عزائمنا ، وعميت أبصارنا ، فأنفسنا نضيع ، وأرواحنا تزهق

جاءت هذه الحرب لتنسف تاريخاً شائخاً ثقيلاً قد اضطجع على حياة الشرق كما يضطجع الجبل على سفحه الرَّحْب ، فإذا تأخر الشرق وتهاون وتكاسل على ما عوّده الموت الروحيُّ الذي كان فيه ، فقد سنحتْ له الفرصة ثم ولّت عنه ، وتركتْ يدَه ممتدّة لا تمسكُ إلا أذيالَ الريح التي استَرْوَحتْ عليه بأنفاس الصيد ورائحته

إن في هذا الشرق لميراثاً نبيلاً من الأعمال والأخلاق والآداب والسياسات ، ولكن هذا الميراثَ المضيَّع المنسي لا يجدي من خير على نائم قد أغمض عينيه عن الحياة ، استمتاعاً

بحياة أخرى تعرضها له أحلام رخية تختال فى خياله . هذا الميراث المجهول فى حاجة إلى من ينفض عنه غبار القدم ، وأتربة الإهمال ، ويزيل عنه أدران الجهل والخمول ، ويجلوه مرة أخرى على أعين الناس مضيئاً مشرقاً يتوهج بأنواره كأحسن ما يتوهج

لقد كانت الحضارة الأوربية الماضية ، وقامت على روح من الأثرة والبغي والاستبداد ، وفقدت كل معانى الروح السامية التى تبذل أكثر مما تأخذ ، وتعتد الغنى من الاستغناء لا من الجمع والتمديد ، وتجعل حرية النفس فى ضبطها وإمساكها على المصلحة لا فى تسريحها وإرسالها على مد الشهوة . وقد كان للشرق مجد وحضارة ومدنية ، وتم الإسلام كل الكمال لهذه الحضارة بما أقام للناس من شعرائه وآدابه ، وجاء على الشرق زمان كان الإصلاح فيه ضرباً من إفساد الصالح ، وزيادة الفاسد فساداً وخبالاً . وكذلك ضاع كل شىء ، ورجع بنا الزمن إلى جاهلية جهلاء ، تقوم على التقليد لا على الإبداع ، وعلى المتابعة لا على الاستقلال ، وبالكبرياء لا بالتواضع ، وحتى ذكرى مجدنا السالف قد صارت عندنا نخوة جاهلية فى التعظم بالآباء والأجداد ، لا عملاً عظيما تنظمه أعمال الآباء والأجداد والوراثة القومية النبيلة

والحضارة ليست هى العرض الظاهر من قوتها وبنيانها وفنونها وكل ما يقوم به تمت الحضارة ، بل الحضارة هى السر الذى يعمل فى إيجاد ذلك واستنباته ، وإخراجه على الأرض واستثماره : هى سر الحبة التى تنبت الدوحة ، والذرة التى تقوم بها المادة . فكل حضارة لا بد لها من روح تعيش بها وتنمو ، وعلى ما فى هذه الروح من النظام والتدبير والنبل والسمو ، تنشأ الحضارة منظمة مدبرة سامية نبيلة . ونحن لا نشك فى أن الروح التى ورثها الشرق فى نواحيها ، والتى طهرها الإسلام من نواحيها وأتمها ، وأحسن سياستها ، ونفى عنها خبثها — هى التى تستطيع أن توجد على الأرض حضارة تملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً ، وتفيض بهما رحمة كما فاضت غلظة ، وتجعلها طريقاً للإنسانية تخرج به من ظلمات الباطل والبغى والغرور إلى نور الحق والتواضع والمساواة . ويومئذ لا يقتتل الناس من أجل سلب الحق للزيادة فى أنفسهم وجنسياتهم ، بل يقتتلون — إن هم اقتتلوا — من أجل إعطاء الحق وردّه على أهله مهما اختلفت جنسياتهم ، ولا فضل لأحد على أحد إلا بما يحسن هذا ويسىء ذاك ، ويصبح القانون العالى ، قانون الحق يستقر حيث ينبغى أن يستقر

إن العالم الآن ليقتتل على غير غرض إنسانى كامل مقرر ، لا يشذ على غايته ومبادئه أحد . إنه يقتتل على طعام يؤكل ، بل على هذا الطعام كيف يُؤكل . فليس لهذه المدنية الأوربية إلا معنًى جنسىٌّ مُتعصِّبٌ تدافع عنه لنفسها لا للانسانية كلها ، لا يشك فى ذلك إلا من طمس الله على بصيرته ، وقادته أهواؤه وغرائزه دون عقله وواجبه . وما هذا التوحش الحيوانىُّ فى هذه الحرب إلا نتيجة طبيعية للفكرة القومية المستقلة التى لا تريد إلا أن تستولى على أعظم ما يمكن أن تضع يدها عليه لتستمتع بالحياة والشهوات والسلطان

أما الإسلام — وهو روح الشرق من أقدم عصوره على اختلاف أديانه وأجناسه — فقد وضع كل مأثرة قومية جاهلية تحت قدمى صاحب الرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وسوّى بين الناس من أهله وبينهم وبين أهل ذمته وعهده ، واختار المسلمين ليكونوا شهداء على الناس ، فيكونوا قضاة يحكمون بالعدل لا يبغون ولا يجورون ، وجعلهم دعاة يدعون إلى مبدأ يتساوى عليه الناس ، فمن دخل فيه فهو منه ، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، وكتب عليهم القتال وأمرهم بهم ، وعظم الجهاد فى نفوسهم ، ولكنه قتال على دعوة إلى هذا المبدأ وجهاد فى سبيله وحرم عليهم العدوان ابتغاء عرض الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها

فالمسلم من دينه فى قانون إنسانى كامل ، لا يعمل للجنس أو الفرد أو السلطان والسيطرة ، بل يعمل لإعطاء العالم كله روح المساواة ، قد تحاجزوا بينهم فى الشر ، وانطلقوا فى أيامهم يعملون على إثباتها فى تاريخ الدنيا بمبدئها لا باستبدادها ، وبنائها دون لذاتها ، وبالسمو بها إلى الإشراف على نظام الدنيا والسمو بها ، لا بسيطرة القوة على إخضاع الدنيا وإذلالها ، وجعلها كالبقرة يُحلب درُّها لمن يملكها . فالقانون الإسلامى العظيم هو روح الحضارة التى يجب أن تسود العالم ، فإنها حين تسود عليه تجعل الحق هو السيد الذى تخضع له أعناق الناس ، لا يبغى بعضهم على بعض فى سبيل شهوات غريزية حيوانية مفترسة ، يغذوها الدم ويهيجها الدم ، فهى آكلة لا تشبع وثائرة لا تقر

والمسلمون اليوم هم جل الشرق ، وروح الشرق ، ولكنهم مسلمون قد أفرغوا من معانى الإسلام وبقيت ألفاظه تعيش بهم. إن كل فضيلة من فضائل هـذا الدين ، وكل عمل من أعماله قد انتزعت منه روحه ، فتعامَل الناس على ما خيّلتْ ، لا يبالون ما أمروا به ولا ما نهوا عنه ، ففقد هـذا الشرق الرأى العام الإسلامى الذى يكون تعبيراً صحيحاً عن إرادة الإنسانية فى الاستعلاء والسمو . ولكن هذه الحرب قد تثير هذا العالم الراكد ، وتدفع فيه أمواجه الأولى التى غسلتْ وجه الأرض وطهرته من دنس الحياة المادية العابثة العربدة ، فإذا كان ذلك فإن هذا الشرق قد أعد اليوم لأمر جلل ، وقد حفظ الله له تاريخه الذى ورثه كاملاً فيه الأسوة وفيه العبرة ، وفيه فلسفة الحياة الاجتماعية التى تجعل الفرد الواحد أمة كاملة لأنه هو ممثل الأمة ، وتنصبه حاكما لأنه يحكم نفسه أول ما يحكم ، وتهيئه جيشاً محارباً فى سبيل الحق الأعلى للانسانية ، لأنه يحارب نفسه أول ما يحارب فى إقرارها على إعطاء الحق لمن يستحقه من حقيقة نفسه

فاليوم يوم الشرق إن اختار أن يبدأ حركته إلى الغاية التى أمر بالبلوغ إليها والوقوف عليها شاهداً قاضياً ، يدبر الأمر ويصرفه فى سيادة الحق كله على الباطل كله . ونحن لا ننسى ما صرنا إليه ، ولا نغفل عما فرغت منه أيدينا من أسباب الغلبة التى تتحكم اليوم فى مصير الدنيا ، ولـكن الإرادة التى تحكم الرجل الواحد ، تستطيع أن تحكم العالم كله ، وسبيل ذلك أن يكون كل رجل مريداً إرادة صارمة لغرض مقصود بعينه ، فهذه الإرادة هى التى تفتق له الجو الإلهى الذى يمد الإرهاص للمعجزة الإنسانية

ستكون أحداث ، وتتجدد على الناس نوازل ، وتسيل الـكوارث من كل مسيل ، ولـكن الشخصية الاجتماعية التى لا تختلف ولا تتدابر ولا تتعادى ، تستطيع أن تغرس فى أيام المحن غرس الجد الإنسانى السامى ، لتنبت شجرة يمتد ظلها ، ويترامى فيئها ، ويطيب ثمرها ، ولا يكون ذلك إلا بعد جهد ومشقة وعنت ، ومصابرة للنفس على لأواء الحياة التى فرضت علينا أن نتألم ، وأن نصاب ، وأن يبلغ منا العذاب مبلغاً يُجهد ويؤود

فهذا أوان يستطيع الشرق أن يضرب الاستحكامات فى أرضه وفى أوطانه بأخلاق سامية عانية ، فيها القدرة على النمو ، والقوة على البقاء ، وأن ينظم لحياته نظاماً يهدف بغاياته إلى مستقبل يبعد عنه أو يقرب على حياطة تحفظه أن يقع فيه ما وقع فى أيام البلبلة الأخيرة التى تبعت الحرب الماضية . نعم ، إن الشرق يفقد اليوم زعيمه الذى يهب من جماعته كالأسد تنفرج عنه الأجمة الكثيفة عالىَ الرأس حديد النظرة ، تتفجر القوة من كل أعضائه ولـكن ، أيمنع هذا أصحاب القلوب الحية التى تشعر بحاجتها إلى هذا الرجل أن تهزّ شعوبها هزّاً عنيفاً متتابعاً ، حتى ينفلتَ إلى المقدمة ذلك الأسد الرابض إلى الأرض فى قيوده الاجتماعية التى تقعد به عن الحركة للوصول إلى المكان الذى أعده له القدر ، ليبدأ بدأه فى إعداد الدنيا لاستقبال الدين الذي سيتجدد فى الدنيا ، لأنه هو سر الدنيا وسر القدر

إن علينا أن نعمل ، فإن كان ما أردناه وما نتمناه ، فذاك عز الإنسانية ورضوان من الله ، وإلا فقد أدينا ما وجب ، ولله الأمر من قبل ومن بعد

محمود محمد شاكر

١٥٠٤

الافصـــاح

المعجم العربى الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية فى العلوم المختلفة ، ولا يستغنى عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريبا ، طبع دار الـكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

مصطفى يوسف موسى
المدرس بمدرسة الخديوى إسماعيل الثانوية

عبد الفتاح الصعيدى
رئيس التحرير بمجمع اللغة الملـكى